The Problem of Text and Discourse between the Origin and the Branch

إشكالية النّصّ والخطاب بين الأصل والفرع

أ. بولخطوط محمد

جامعة محمد الصدّيق بن يحيى جيجل، الجزائر

mohammed.boulekhtout@gmail.com

قدم للنشر في: 2018/03/19 قبل للنشر في: 2018/00/00

Abstract:

Both past and present Studies have been arguing the issue of "the text" and "the speech" for it is, in fact, a terminological problem that associates the choice of one term over the other with the meaning it conveys. Despite the scholars' efforts and attempts to sort out this issue from a logical and scientific approach, no radical solution seems to be reached. It could be claimed that the reason behind this confusion lies in the fact that the two terms share many characteristics in addition to the random usage of these terms by some researchers that may be ignorant of the difference in meaning or that this different does not matter to them at the time they use it.

Based on what has been said, this issue has been a significant part in many linguistic research works in the past, yet it still raises conflict in the present times in the Arab and foreign linguistic research; hence the research problem of this article. In this research paper, we are attempting to cover the dichotomy "text/speech" with the aim to answer some important questions and figure out which the original among the two terms is. The research questions are: "Is there actually a difference between a 'text' and a 'speech'? If so, shoud each term be a separate independant science with distinct rules, objectives and characteristics?"

Key words : text, speech, origin, branch.

الملخص :

نال النّقاش حول قضيّة النّص والخطاب نصيبا كبيرا في الدراسات القديمة وحتّى المعاصرة، لأنّها تمثّل فعلا إشكالية اصطلاحية في امتداد كل مفهوم من حيث الدلالة، وعلى الرغم من المحاولات العديدة والجادّة التي خاضها بعض الباحثين في إيجاد تخريج علمي لهذه القضيّة، وعلى وجاهة هذه الآراء من الناحية المنطقية، إلاّ أنّ ذلك لم يحلّ الإشكال بصفة جذرية نهائية، وهذا راجع إلى اتّسام المصلحين بالطابع الجدلي بالدرجة الأولى، ثمّ اشتراكهما في الكثير من الخواص من ناحية أخرى، بل يمكن إسناد هذا الإشكال إلى تلك الاستعمالات العشوائية من لدن بعض الباحثين الذين لا يميّزون في توظيفهم اللغوي بين أبعاد كل مصطلح جهلا منهم لحدودهما الفاصلة، أو أنّ التفريق لا يعنيهم ـ على الأقلّ ـ في فترة من الفترات.

إذن وقياسا على ما قيل وعلى ما سيقال، تظلّ مسألة النّص والخطاب والجدل القائم حولها من أبرز المسائل القديمة التي عالجها المفكّرون والباحثون في المراحل السابقة؛ إذ لا يكاد يخلو أيّ بحث لساني نصّي من الوقوف عندها، إلاّ أنّها لا تزال إلى يومنا هذا تصنع الجدال في وسط الحقول المعرفية عربية كانت أم غربية، لأنّها كانت ولا زالت من أكثر المسائل والقضايا الشائكة، ومن هذه النقطة بالذات تتولّد إشكالية هذا المقال، حيث سنحاول في هذه الورقة البحثية الوقوف على ثنائية **[نصّ/**

خطاب] من حيث التصوّرات والمفاهيم التي أعطيت لطرفي هذه الثنائية بغرض الوصول إلى أي طرف منهما يمثّل الأصل، محاولين من خلال ذلك الإجابة على السؤالين التاليين: **هل يوجد فرقا بين ما يصطلح عليه تسمية "النّص"، وما يصطلح عليه بلفظ "الخطاب"؟، ثمّ إذا كان هناك تباينا فعلا، فهل يعدّ من الأهمّية بمكان أن يصير كلٌ منهما علما مستقلا بذاته عن الآخر؛ كلٌ له أهدافه، قواعده، ومميّزاته الخاصة به؟**

كلمات مفتاحية: النّصّ، الخطاب، الأصل، الفرع.

مقدمة:

يكاد يُجمع كلّ المتحدّثين عن الخطاب وتحليل الخطاب على ريادة "زريك هاريس" في هذا المجال، وتحديدا عام 1952م من خلال بحثه الموسوم بـ "تحليل الخطاب" "Discourse analysais"؛ إنّه أوّل لساني أمريكي حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتعدّى الجملة إلى الخطاب[1]، وهكذا عرف الخطاب تحوّلات معرفية متنوّعة ابتداء من نحو النّص، وصولا إلى تحليل الخطاب، ومرورا باللسانيات النّصّية، ولعلّ هذا الانتقال المعرفي هو الذي أحدث الإشكال القائم بين الباحثين حول حدود كل من مصطلح "النّص" ومصطلح "الخطاب"، وسنحاول هاهنا الوقوف عند هذه القضيّة التي كثيرا ما شغلت تفكير العديد من الباحثين ومحلّلي الخطاب لفترة ممتدّة من الزمن، مع الإشارة إلى مختلف التصوّرات المتعلّقة بالمصطلحين، وقبل الخوض في المسألة رأيت من المناسب أولا أن أقدّم بَسْطًا تعريفيا لحدود المصطلحين في تراثنا العربي القديم، ثمّ في الفكر العربي الحديث، ليتمّ الوصول بعدها إلى الحوض المعرفي الغربي، «فعلى الرغم من غنى العربية بالمفردات التي يفوق عددها مفردات بعض اللغات الأخرى، ترانا نعاني أحيانا من مشكلة تحديد معاني عدد من المفاهيم والمصطلحات العلمية، وتحديد الوافد منها في إطار العلوم الإنسانية. فاللّغة أيّة لغة كانت هي أساس التعامل الإنساني، وهي وسيلة للتعبير عن أوضاع وحالات وأفكار محدّدة، والمصطلح كما هو معلوم مفتاح العلم وألف بائه؛كلّ علم وأيّ علم كان»[2]، من هنا تأتي أهمّية تحديد مفهوم "النّص" و"الخطاب" عملا بمقولة "فولتير" الشهيرة: "**قبل أن تتحدّث معي، حدّد مصطلحاتك**".

أولا: النّص والخطاب في التراث العربي القديم:

يعدّ الحديث عن النّص/ الخطاب من الأحاديث التي أخذت حيّزا وقسطا كبيرا في تراثنا الفكري القديم، لأنّ تناول مفاهيم كل من النّص أو الخطاب يساعد على بناء التصوّر الأمثل والأنجع لطبيعة التواصل البشري، ومحاصرة الكم الأوفى من خصائصهما وقوانينهما التي هي دَأْبُ كلّ باحث في هذا العصر.

1 ـ مفهوم النّص:

لا يمكن أن تخلو حياة إنسان ما، ولا حياة أيّ مجتمع من المجتمعات من النّص، الذي يتسرّب في كلّ تعاملاتنا اليومية، فحيث لا يوجد نصّ لا يوجد موضوع للدراسة ولا للتفكير، ولعلّ معجم "لسان العرب" لـ "ابن منظور" خير مقصد يساعدنا بالرجوع بلفظ النّصّ إلى أصله اللغوي على امتدادٍ زمني كبير، كما أنّه يجنّبنا مشقّة البحث عن دلالة المصطلح في تراثنا الضخم،

(1) ـ ينظر: باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، دس، ص44.

(2) ـ يوسف بريك: حول وضع العلوم الإنسانية ومشكلاتها من منظور ابستيمولوجي، مجلة جامعة دمشق، سورية، مج15، العدد 4، 1999م، ص106.

جاء في تفسيره لمادة "نَصَصَ" باب الصاد فصل النون: «النَّصُّ: رَفْعُكَ الشيء، نَصَّ الحديث يَنُصُّه نصًّا: رفعه، وكلّ ما أُظْهِرَ فقد نَصَّ (...) يقال نَصَّ الحديث إلى فلان أي رَفَعَهُ، ونَصَّت الظبيةُ جِيدَهَا: رَفَعَتْهُ، وَوُضِعَ على المَنَصَّةِ: أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور، والمنَصَّةُ: ما تُظْهَرُ عليه العروس لِتُرَى (...)، وهي تَنْتَصُّ عليها لتُرَى من بين النساء (...)، وقولهم: نَصَصْتُ المتاع إذا جعلت بعضه على بعض، وكلّ شيء أظْهَرته فقد نَصَصْتهُ (...)، ونَصَّ المتاع نَصًّا: جعل بعضه على بعضٍ، ونَصَّ الدابة يَنُصُّها نَصًّا: رفعها في السير وكذلك الناقة (...) وأصل النّص أقصى الشيء وغايته، ونَصُّ كلّ شيءٍ منتهاه».[1]

بناء على هذا المفهوم فإنّ النّصّ في دلالته اللغوية يوحي بمعانٍ كثيرة هي: الرَفْعُ، الظهور والوضوح وقمّة الجلاء، التكديس وجعل الشيء بعضه فوق بعض، أقصى الشيء، وغايته ونهايته.

2 ـ مفهوم الخطاب:

إنّ التعريفات بشأن هذا المصطلح قد تعدّدت بتعدّد زوايا النظر والمنطلقات المعرفية للنقاد والمحلّلين، لذلك نجد أنفسنا أمام كمٍ هائل من التعريفات القائمة على مرجعيات متباينة (لسانية، سيميولوجية، تداولية، ...)، وداخل هذه المرجعيات نجد معايير كثيرة: شكلية، دلالية، ...الخ، الأمر الذي يجعل الخطاب عصيّا على التحديد، ولكن ومع ذلك سنحاول الوقوف على بعض تلك المفاهيم:

إنّ الخوض في الطرح المفاهيمي لمصطلح "الخطاب"[*] في تراثنا الفكري القديم، يستدعي بالضرورة الرجوع إلى الدلالة اللغوية أولا معزّزة بالدلالة الاصطلاحية للكلمة ثانيا، ولعلّ ما يساعدنا على معرفة المعنى اللغوي للمصطلح هو معجم "لسان العرب"، إذ ورد في تفسير مادة "خَطَبَ" باب الباء فصل الخاء: «الخَطْبُ: الشأن أو الأمر، صَغُرَ أم عَظُمَ (...) والخَطْبُ: الأمر الذي تقع فيه المُخَاطَبَةُ (...)، والخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ: مراجعة الكلام، وقد خَاطَبَهُ بالكلام مُخَاطَبَةً وخِطَابًا، وهما يتخاطَبان (...)، والمُخَاطَبَةُ صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن...».[2]

إذن فمراجعة الكلام على حدّ تعبير "ابن منظور" تقتضي لا محالة وجود طرفين كحدّ أدنى هما: المخاطِب والمخاطَب قصد نجاح عملية المخاطبة.

هذا وقد عرّفه "أبو البقاء الكفوي" مشيرا إلى معناه الاصطلاحي قائلا: «الخطاب هو اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيّئ لفهمه. احترز "باللفظ" عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، و"بالتواضع عليه" عن الألفاظ المهملة، وبـ "المقصود به الإفهام" عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنّه لا يسمّى خطابا، وبقوله "لمن هو متهيئ لفهمه" عن الكلام

(1) – ابن منظور، جمال الدّين أبي الفضل محمّد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري: لسان العرب، ج4، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/ 2005م، مادة "نَصَصَ".

(*) ـ إنّ مادة "خَطَبَ" قد تردّدت في القرآن الكريم بين صيغتي الفعل والمصدر اثنتي عشرة مرّة، موزّعة على اثنتي عشرة سورة، ومن تلك المواضع نذكر: قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا**﴾ [سورة الفرقان، الآية: 63]، و﴿**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ [سورة هود، الآية:37]، و﴿**قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**﴾ [سورة طه، الآية:95]، و﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ**﴾ [سورة ص، الآية: 20]، و﴿**رَبِّ السَمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**﴾ [سورة النبأ، الآية: 38]، وغيرها من المواضع الأخرى.

(2) – ابن منظور: لسان العرب، ج1، **(مرجع سابق)**، مادة "خَطَبَ".

لمن لا يفهم كالنائم، والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع وعلى مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إمّا الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام».[1]

وعليه فإنّ الخطاب هو كل كلام يشترط فيه إفهام الغير، ومن هذا المنطلق فإنّ تراثنا العربي قد تحسّس أهمّية الخطاب والدور التداولي الذي يعدّ أهمّ شروطه، مثل ما نجد أسس النظريات اللسانية كامنة فيه.

ثانيا: النّصّ والخطاب في الفكر العربي الحديث:

1 ـ مفهوم النّصّ:

النّصّ من وجهة "عبد الملك مرتاض" عبارة عن: «شبكة من المعطيات اللسانية والبنيوية والأيديولوجية، تتضافر فيما بينها لتكوّن خطابا، فإذا استوى مارس تأثيرا عجيبا من أجل إنتاج نصوص أخرى، فالنّص قائم على التجدّدية بحكم مقروئيته، وقائم على التعدّدية بحكم خصوصية عطائيته تبعا لكلّ حالة يتعرّض لها في مجهر القراءة، فالنّصّ من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدّد بتعدّد تعرّضه للقراءة».[2]

يشير "عبد الملك مرتاض" في هذا المفهوم إلى أنّ النّصّ ليس إنتاج منته أو مغلق، بل هو إنتاج في حالة حدوث دائم ومتّصل بنصوص أخرى، أو بتعبير آخر النّص عبارة عن عملية إنتاجية على حدّ تعبير "جوليا كريستيفا"، وهذا ما يصطلح عليه تسمية: الحوارية أو التّناص، كما يشير هذا التعريف أيضا إلى أنّ النّصّ بنية مفتوحة على فعل القراءة، فالمتلقي هو الطرف الثاني الذي يساهم بفضل قراءته للنّص في استمراريته، وتأليف نصّ آخر انطلاقا من النّصّ الأصل، ولعلّ هذا ما يؤكّده "صلاح فضل" حينما يقول: «النّص مفتوح، ينتجه القارئ في عملية مشاركة، لا مجرّد استهلاك. هذه المشاركة لا تتضمّن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنّما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، فممارسة القراءة إسهام في التأليف».[3]

وإلى نفس الاتّجاه يذهب "عبد السلام المسدي" إذ يقول: «فالنّصّ إذن تركيب وأداء وتقبّل أو ملفوظ وتلفّظ واستقبال، غير أنّ الأمر لا ينتهي عند عملية التّلقي؛ ذلك أنّ للمتلقّي مع النّصّ حالات متطوّرة؛ فللنّصّ شأن عند مباشرته للمرّة الأولى، ثمّ له شأن آخر عند معاودته، وشأن ثالث عند اختزانه، ورابع عند الحديث عنه، وهو في كلّ مرّة كأنّما قد صار نصًّا جديدا».[4]

أمّا "خلود العمّوش": فتحدّد هي الأخرى مفهوم النّصّ، مستحضرة في تعريفها أفكار من سبقها من الباحثين قائلة: «هو كلّ كلام متّصل ذو وحدة جليّة تنطوي على بداية ونهاية، ويتّسم بالتّماسك والتّرابط، ويتّسق مع سياق ثقافي عام أدرج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام يتعلّق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة، وبين بداية النّصّ وخاتمته مراحل من النمو القائم على التفاعل الداخلي، وهذا التفاعل يؤدي بالنّصّ إلى إحداث وظيفته التي تتمثّل في خلق التواصل بين منتج

(1) – الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكلّيات، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، لبنان، دط، 1998م، ص419.

(2) – عبد الملك مرتاض: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دس، ص55.

(3) – صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النّص، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، دط، 1996م، ص297.

(4) – عبد السلام المسدي: قضية البنيوية دراسة ونماذج، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، دط، 1995م، ص52.

النّص ومتلقّيه».[1]

يبرز لنا هذا التعريف جملة من السيمات التي تميّز النّصّ، باعتباره إنتاجا موجّها إلى الطرف الثاني في العملية التواصلية التخاطبية وهو المتلقي أو ما يعرف بالمخاطَب، فلكلّ نصّ بداية ونهاية، كما لا بدّ لبنياته التي تشكّله أن تكون متماسكة ومترابطة فيما بينها، هذا فضلا على أنّ النّصّ لا ينتج إلاّ في سياق أو مقام معين يندرج ضمنه ويفهم من خلاله، سواء أكان هذا السياق عاما أم خاصا.

2 ـ مفهوم الخطاب:

يعرّف "عبد الهادي بن ظافر الشهري" الخطاب قائلا: «حدّ الخطاب أنّه كل منطوق به، موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا»[2]، ولا يبتعد "الشهري" في مفهومه هذا عن التعريف الذي تداوله علماؤنا القدامى على غرار "الكفوي" في المفهوم السابق للخطاب.

بناءً على هذا الكلام فإنّ للخطاب مفهوما واسعا وعاما، يتحدّد معناه على أساس العملية التلفظية، أو العلاقة القائمة بين طرفي هذه العملية (المخاطِب والمخاطَب)، فالخطاب بهذا المعنى ذو طابع شمولي كلّي لا يتوقّف على البعد اللساني لوحده، ولا على البعد الاجتماعي والتاريخي الذي يعدّ النّصّ انعكاسا لحركة الدلالة في التاريخ، كما لا يقتصر على البعد التداولي المعني بالتواصل في موقف ما، ولكنّه مفهوم يمزج بين كلّ هذه الأبعاد والتّصوّرات على الصعيد النظري، وحتى على المستوى التطبيقي الإجرائي أيضا.

ثالثا: النّصّ والخطاب في الحوض المعرفي الغربي (الثقافة الغربية):

1 ـ مفهوم النّص:

يعود الأصل اللاتيني لمصطلح "النّصّ" إلى كلمتي Texte و Text المشتقتين بدورهما من Textus بمعنى النسج Tissu المأخوذة من Texere بمعنى نَسَجَ، ولعلّ في هذا المعنى إحالة إلى الاكتمال والاستواء في الصنع، لما في النسج من ضمّ للشتات، وجمع للمتفرّق، وهذا هو المعنى عينه الذي يحيل إليه المصطلح العربي [**نص**]، يقول "الأزهر الزناد" مؤكدا ما قلناه، وموضّحا هذا التداخل: «فالنّصّ علامة كبيرة ذات وجهين: وجه الدال ووجه المدلول، ويتوفّر في مصطلح (نص) في العربية، وفي مقابله في اللغات الأجنبية Texte معنى النسيج، فالنّص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلٍّ واحدٍ، وهو ما نطلق عليه مصطلح "نص"».[3]

هذا وسنورد فيما يلي جملة من التعريفات، التي وضعها علماء الغرب للمصطلح قصد تحديد معالمه، وضبط حدوده:

* عند "ستورك هارتمان": «النّص متتالية من الكلمات تكوّن ملفوظا منجزًا».[4]

ومعنى ذلك أنّ النّصّ مظهر مادي بمجرّد إنتاجه، لأنّه يخرج من مركز الوجود بالقوة (الوجود الذهني) إلى مركز الوجود

(1) – خلود العموش: الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص22.

(2) – عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص39.

(3) – الأزهر الزناد: نسيج النّص في ما يكون به الملفوظ نصًّا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، دط، 1993م، ص12.

(4) – محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النّص، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001م، ص83.

بالفعل (التجسيد والإنجاز الفعلي)، وعند هذا المظهر يتلقاه الطرف الثاني في العملية التواصلية وهو المخاطَب (المستمع).

* عند "إميل بنفنست": يقول معرفا النّصّ في معناه الواسع: «كلّ تلفّظ يفترض متكلّما ومستمعا، وعند الأوّل هدف التأثير على الثاني بطريقة ما».(1)

أي أنّ النّصّ موجه إلى المتلقي، الذي يقوم باستقباله، وإعادة توجيهه أو إنتاجه استجابة للتأثير الذي أحدثه صاحبه فيه، وهنا يحدث تمازج وتداخل النصوص، ولعلّ هذا ما عبّرت عنه "جوليا كريستيفا" بمصطلح التّناص.

* عند "جوليا كريستيفا": النّصّ حسب تصوّرها هو: «تركيب من عدّة نصوص أي تناص، أو عملية استبدال من نصوص أخرى؛ فالنّصّ جهاز عَبْرَ لغوي يعيد توزيع نظام اللغة، يكشف العلاقة بين الكلمات، مشيرا إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة أو المتزامنة معها، والنّصّ نتيجة لذلك إنّما هو عملية إنتاجية»(2).

* عند "رولان بارت": النّصّ عنده «ليس موضوعاً، ولكنّه عمل واستخدام، وليس مجموعة من الإشارات المغلقة المحمّلة بمعنى يجب العثور عليه، ولكنّه حجم من الآثار التي لا تكفّ عن الانتقال».(3)

لقد لاحظ النقاد أنّ بين النّصّ مكتوباً والخطاب ملفوظاً وحدة لغوية، ولكنّهم أدركوا أن الإنجاز يقف فيصلاً بين الطرفين، ولطالما يذكّرنا هذا بنظرية "فرديناند دي سوسير" في ثنائية اللغة والكلام، أو بنظرية "نوام تشومسكي" في ثنائية الكفاية والأداء، فالنّصّ كلام إلاّ أنّه يصدر عن ذاتيته النصيّة على حدّ تعبير "رولان بارث" التي عملت على إنجازه وأدائه، والكلام الآخر غير النّصّي هو كلام أيضاً، إلاّ أنّه خطاب شفوي عمل الشخص على إنجازه وأدائه، وهذا يعني أن وحدة اللغة لا تمنع أو لا تحول دون تعددية الإنجاز والأداء.(4)

2 ـ مفهوم الخطاب:

عرف مصطلح الخطاب اضطرابا كبيرا نظرا لارتباطه بتصوّرات مختلفة للغة انعكست على تحديده، إذ هناك من يجعله مرادفا للمفهوم السوسيري "كلام"، ولعلّ هذا ما يمكن لمسه من خلال الكلام الذي أورده "رابح بوحوش" مشيرا بطريقة أو بأخرى إلى هذا المعنى، يقول: «تعود نشأة الخطاب الأولى إلى "فرديناند دي سوسير" صاحب كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة"(...) الكلام: هو نتاج فردي كامل يصدر عن وعي وإرادة، ويتّصف بالاختيار الحرّ وحرّية الفرد الناطق تتجلّى في استخدامه أنساق للتعبير عن فكره الشخصي».(5)

إلى الاتّجاه نفسه يذهب "جون ديبوا" إذ يقول في سياق حديثه عن تعريف الخطاب على أنّه: «هو اللغة أثناء استعمالها؛ إنّها اللّسان المسند إلى الذات المتكلّمة، فهو بذلك مرادف للكلام بالمفهوم السوسيري».(6)

(1) – عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص37.

(2) – j. kristeva: recherche pour une sémanalyse, éditions du seuil, paris, 1969, p52.

(3) – R. barthes: l'aventure sémiologique, éditions du seuil, paris, 1985, p13.

(4) – منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، ط1، 1990م، ص 203.

(5) – رابح بوحوش: الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، دط، 2006م، ص71.

(6) – عمر بلخير: مقالات في التداولية والخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013م، ص ص9-10.

وعليه فإنّ مصطلح الخطاب إنّما تعود جذوره إلى عنصري اللغة والكلام، فاللغة عموما نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن أغراضه، والكلام إنجاز لغوي فردي حر يتوجّه به المتكلّم إلى شخص آخر يدعى المخَاطَب، من هنا تولّد مصطلح الخطاب بعدّه رسالة لغوية يبثّها المتكلّم إلى المتلقّي، فيستقبلها ويعمل على فكّ رموزها وشفراتها (Décodage).

فضلا عن ارتباط مصطلح الخطاب في الثقافة الغربية بالمصطلح السوسيري "كلام"، فقد ارتبط بمصطلحات أخرى على غرار مصطلح "الملفوظ" فها هي "جوليا كريستيفا" بدورها تعرّف الخطاب على أنّه ملفوظا يستدعي حصوله وجود طرفين أساسين يكون لمنتجه دورا فعالا في التأثير على المستمع، تقول: «الخطاب يدلّ على كلّ ملفوظ يحتوي داخل بنياته البَاثَّ والمتلقي، مع رغبة الأوّل في التأثير في الآخر»[1]، وإلى نفس الاتّجاه يذهب "زريك هاريس"، إذ يعرّف "الخطاب" بكونه: «ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكوّن بنية مغلقة».[2]

أي أنّ الخطاب حسب "هاريس" كلّ كلام تجاوز الجملة الواحدة، غير أنّ للخطاب مفهوما آخر ربّما فاق المفهوم الألسني البحت في أهميته النقدية، ذلك هو ما تبلور في كتابات بعض النّقاد والمفكرين المعاصرين وفي طليعتهم الفرنسي "ميشال فوكو" في محاضرته "نظام الخطاب"، حيث نجده يحدّد الخطاب على أساس أنّه: «شبكة معقّدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تَبْرُزُ فيها الكيفية التي يُنْتَجُ فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه».[3]

رابعا: جدلية النّصّ والخطاب:

عندما نقرأ بعض الدراسات نجد كثيرا منها قد استعملت مصطلح النص Texte وتقصد به الخطاب Discours، ونجد كثيرا منها قد استعملت الخطاب وهي تقصد النّص، وهناك دراسات أخرى تجعل المصطلحين مترادفين وكأنّهما شيئا واحدا لا فرق بينهما، ولذلك نتساءل: **ما الفرق بين النّصّ والخطاب؟ أين يلتقيان وأين يفترقان؟**

هناك من الباحثين من يجعل النّصّ والخطاب مترادفين لا فرق بينهما كما أشرنا، ولعلّ من أبرز هؤلاء "بول ريكور" الذي نجده يعرّف النّصّ بكونه: «كلّ خطاب تمّ تثبيته بواسطة الكتابة»[4]، فالكلام عنده لا يمكن أن نطلق عليه مصطلح "النّصّ" إلاّ بعد تقييده عن طريق الكتابة، وكأنّه بهذا المعنى يقصي كل النصوص الإبداعية الشفوية على غرار الخطب والأمثال ونحوها، وفي التفكير العربي نجد "محمّد عابد الجابري" يحذو حذو "ريكور" جاعلا النّصّ خطابا حين يقول: «النّصّ رسالة من الكاتب إلى القارئ فهو خطاب...».[5]

في المقابل هناك من يجعل النّص ملفوظا، ليس بالضرورة أن يتقيّد بالكتابة، فالنّصّ يشمل ما هو مكتوب خطّي وما هو منطوق لفظي، ولعلّ أبرز من تحدّث عن هذا الجانب "لويس يالمسلاف" حين جعل النّصّ ملفوظ لغوي يمكن أن يكون محكيا منطوقا أو مكتوبا، قصيرا كان أو طويلا، قديما أو جديدا، أمّا "خلود العموش" فتتحدّث هي الأخرى عن علاقة النّص

(1) ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص44.

(2) ـ المرجع نفسه، ص43.

(3) – ميشيل فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دون دار النشر، دب، دط، دس، ص05.

(4) – بول ريكور: نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م، ص57.

(5) – محمد عابد الجابري: تحليل الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ص60.

بالخطاب، غير أنّها تذهب بإشكالية النّص والخطاب إلى أبعد من ذلك حين تقول: «وليس كلّ خطاب نصّا وإن كان كلّ نصّ بالضرورة خطابًا، فالكلام المتّصل خطاب، ولكنّه لا يكون نصّا إلاّ إذا اكتمل ببداية ونهاية، عبّر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم».(1)

ومع تضارب الآراء وكثرة المواقف، تظلّ مسألة النّصّ والخطاب تطرح نفسها على الساحة الفكرية دون أن يكون هناك أيّ تخريج معرفي يحلّ الإشكال، لعدم وجود حدودا واضحة تفصل بين المفهومين، ولكن ومع ذلك نحاول فيما يلي صياغة بعض الفروق المعتمدة في التمييز بين ما هو نصٌ، وما هو خطابٌ، وإن كانت لا تؤخذ بعين الاعتبار عند جميع مستعملي المصطلحين:

• الخطاب يفترض وجود سامع يتلقّاه، بينما يتوجّه النّص إلى متلقٍّ غائب يتلقاه عن طريق فعل القراءة؛ أي أنّ الخطاب نشاط تواصلي يتأسّس أوّلا وقبل كلّ شيء على اللغة المنطوقة، بينما النّص مدونة مكتوبة.

• الخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره؛ أي أنّه مرتبط بلحظة إنتاجه، بينما النّصّ له ديمومة الكتابة فهو يُقرأ في كلّ زمان ومكان.

• يتميز **النّصّ** عن **الخطاب** في وعي كثير من الدارسين أن مرجع الخطاب خارجي مقامي، يتجلّى هذا الأخير في شبكة العلاقات القائمة بالقوّة أو الفعل بين أطراف العملية التخاطبية، أمّا مرجع النّص فداخلي نصّي أو نصوصي مقالي، أو بعبارة أخرى النّصّ إجراءاته نصّية محايثة تقصي السياق الخارجي، والخطاب إجراءاته تداولية يعدّ السياق الخارجي من أهمّ إجراءاته، ويمكن التمييز بين النّصّ والخطاب بناء على هذا الكلام، وحسب ما يراه "جون ميشال آدام" من خلال المعادلتين التاليتين:

الخطاب = النّصّ + السياق

النّصّ = الخطاب ــ السياق

بناء على هذه المعادلة يعدّ السياق المقالي ركيزة مهمّة لفهم الخطاب، لأن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، مثلاً: كثيراً ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية من حيث لغته، ولكنّه قد يتضمن قرائن؛ أي ضمائر أو ظروف تجعله غامضا غير مفهوم دون الإحاطة بسياقه، ومن ثم فإنّ للسياق المقالي دوراً فعالاً في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس،كما أن تأويل الخطاب لا يتسنّى فهمه إلا بوضعه في سياقه التواصلي زماناً ومكاناً ومشاركين فيه أي مقاما، يتحدد دور الأول في أن الكلمة لا يتحدد معناها إلا بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية، ويبرز الثاني أوجه التغيرات التي تصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدم فيها الكلمات.

خاتمة:

بعد هذا البسط المعرفي حول إشكالية النّص والخطاب، نصل في نهاية المطاف إلى استخلاص جملة من النتائج، يمكن رصد أبرزها في النقاط التالية:

ـ إنّ مفهومي النّص والخطاب قد أثارا جدالا واسعا في علوم اللغة، مردّ ذلك تجاوز الاهتمام بالجملة وتخطيها إلى الاهتمام بالخطاب، وقد احتدّ الجدال خصوصا منذ الثمانينات مع صعود التيارات التداولية، التي اهتمت بالإجراء التواصلي وبتجسيده،

(1) – خلود العموش: الخطاب القرآني (**مرجع سابق**)، ص24.

الأمر الذي قاد إلى بروز تحديدات عديدة ومتضاربة أحيانا للخطاب والنّص، من ثمّة حدّد الخطاب إما بطريقة مستقلة أو بمقارنته بالنّص، بل تعدّى الأمر إلى مقارنته بمجموعة من المفاهيم المتعالقة معه، فكانت الحصيلة دخوله في سلسلة من التعارضات الكلاسيكية نتج عنها إقامة جملة من الثنائيات على غرار ثنائية: خطاب/ جملة، خطاب/ لسان، خطاب/ كلام، وخطاب /نص...الخ.

ـ كما يختلف مفهوم كل من النّصّ والخطاب تبعا لاختلاف التّصوّرات والمنطلقات المعرفية للباحثين، حيث ينتج عن هذا التضارب توليد جملة من المفاهيم القائمة على مرجعيات متباينة، ومقاييس متعدّدة، الأمر الذي يجعل تحديد المفهومين والتمييز بينهما عصيّا.

ـ يرتبط النّصّ بالملفوظ عاريا من سياقاته الخارجية، في حين يرتبط الخطاب بعنصر التلفظ، لكن مع كلّ ما يحيط به من ملابسات وظروف ساهمت في تكوينه وإنتاجه وتشكيل بنياته.

ـ تبقى ثنائية [النّصّ/ الخطاب] تطرح إشكالا في الساحة الفكرية العربية وكذا الغربية، في ظلّ غياب لمعايير محدّدة يتمّ من خلالها صياغة مفهوم كل طرف من هذه الثنائية.

ـ يجمع أغلب الباحثين والمهتمّين بتحليل الخطاب أنّ النّص أصل، والخطاب فرع منه؛ ذلك أنّ هذا الأخير لا يكون إلاّ منطوقا شفويا، مرتبط بمقام معين (آني)، بينما النّصّ قد يكون منطوقا كما قد يكون مكتوبا مرسوما (خطّيا)، لا ينحصر بسياقات معينة، فهو رسالة ممتدّة عبر العصور منذ لحظة إنتاجه، فكلّ خطاب نصّا وليس كلّ نصّ خطاب.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

1. الأزهر الزناد: نسيج النّص في ما يكون به الملفوظ نصًّا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، دط، 1993م.
2. باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، دس.
3. بول ريكور: نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م.
4. خلود العموش: الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2008م.
5. رابح بوحوش: الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، دط، 2006م.
6. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النّص، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، دط، 1996م.
7. عبد السلام المسدي: قضية البنيوية دراسة ونماذج، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، دط، 1995م.
8. عبد الملك مرتاض: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دس.
9. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
10. عمر بلخير: مقالات في التداولية والخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013م.
11. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكلّيات، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، لبنان، دط، 1998م.
12. محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النّص، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001م.
13. محمد عابد الجابري: تحليل الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.
14. منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، ط1، 1990م.
15. ابن منظور، جمال الدّين أبي الفضل محمّد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري: لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/ 2005م.
16. ميشيل فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دون دار النشر، دب، دط، دس.

17. يوسف بريك: حول وضع العلوم الإنسانية ومشكلاتها من منظور ابستيمولوجي، مجلة جامعة دمشق، سورية، 1999م.

المراجع الأجنبية:

1. j. kristeva: recherche pour une sémanalyse, editions du seuil, paris, 1969.

R. barthes: l'aventure sémiologique, editions du seuil, paris, 1985.

mohammed.boulekhtout@gmail.com